المطران بولس زرع في أنطاكية

المتروبوليت سابا (اسبر)

الميتروبوليت بولس بندلي (١٩٢٩-٢٠٠٨) ميتروبوليت أبرشية عكار وتوابعها.

إذا كنت تحبّ قريبك أقلّ ممّا تحبّ نفسك فمن الصعب أن تكتب عن إنسان مثل المطران بولس بندلي، الذي طبّق الوصية الثانية العظمى في الناموس "أحبب قريبك كنفسك" بمفهومها الإنجيلي المطلق الذي يتردد في القلائل عبر التاريخ، أولئك الذين عاشوا كلمة الإنجيل القائلة: "ما من حبّ أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه فداء عن أحبّائه".

ما يلفت في المطران بولس بندلي هو نسيان الذات التام والدائم في سبيل الإنسان الذي لم ينقطع سيل طلباته عن هذا المطران الرحيم لحظة واحدة طوال حياته على الأرض. هذا يعني أنّه لم يهتمّ مرّة لنفسه لأنّه كان مشغولاً بشكل دائم بنفوس الآخرين. الذين عايشوه عن قرب وصفوا معيشته، غرفته، ثيابه، طعامه، جيبه الفارغ دائماً أو بالأحرى المثقوب، بشكل يذكّرنا بقصص القديسين الرحيمين أو العادمي الفضة.

للذين يقولون أن هذه المحبّة مستحيلة في عصرنا المتمركز على الذات يقف المطران بولس بسيرته العطرة برهاناً حيّاً على ضلال كلامهم، وشاهداً على مدى فعل الروح القدس في قلوب أصفياء الله الذين ينتسب إليهم.

كنت في صف الأول ثانوي عندما سمعت ب"الأب" بولس بندلي للمرة الأولى. شباب من منطقة الكورة، شمال لبنان، تهجّروا مع عائلاتهم بسبب حرب السنتين اللبنانية (١٩٧٥-٧٧)، أخبرونا عن كاهن في قرية بشمّزين يهرع الناس من قراهم ليشاركوا في قدّاسه. وصفوه لنا كما توصف الملائكة. ممّا دفعني وبعض رفاقي للاعتقاد بأنّهم يضّخمون الأمر بشكل مفرط. لكنّنا عندما

التقيناه للمرّة الأولى في مدينة اللاذقية، وكان في زيارة روحيّة بهدف تشجيعنا على ممارسة الاعتراف، دُهشنا ممّا رأينا. كيف يعيش إنسان كلّ هذه الوداعة؟ من أين يجلب كلّ هذه الرقّة؟ كيف يحوز اللطف الجمّ والابتسامة الدائمة؟ في أذهاننا اليافعة لم نتصوّره إلّا آتياً من أيقونات كنيستنا البهيّة.

تعلّمنا منه فن الإصغاء، وعندما كبرنا فهمنا كم يحتاج الإصغاء إلى تواضع وإنكار ذات. كان يسمع، برهافةٍ، اعتراف الشبيبة، ويحاول بكلّ رقّة أن يوجّهنا حتّى كنّا نشعر أحياناً بأنّه هو المعترِف لا نحن. أذكر أنّه جعلني مرّة، برقّته، أخجل من خطيئتي وأمقتها جدّاً، من دون أن يوبّخني بكلمة قاسية واحدة، وكنت أستحقّ أكثر من كلمة قاسية آنذاك.

ثمّ تتالت اللقاءات في إطار حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة ونشاطاتها الشبابيّة. كيف كنّا نسارع إليه حينما يظهر لنحصل على بركته. إلى يوم سمعنا أنّه صار مطراناً على عكّار. قرّرنا، نحن شبيبة اللاذقية، أن نذهب لنبارك له بعد التنصيب. ومعظمنا آنذاك كان قد اختبر الاعتراف ولو مرّة واحدة على يديه. لاقيناه في قرية صغيرة جدّاً من وادي النصارى اسمها"بحزينا". لم يكن له شهر في الأبرشيّة، جاء ليقيم القدّاس الإلهي في تلك القرية التي صدمتنا كنيستها بصغرها وفقر الخدمة الليتورجيّة فيها؛ بدءاً بالأدوات الكنسيّة وصولاً إلى الترتيل. وجدناه يقيم القدّاس وكأنّه في السماء، لايرى الفقر الذي حواليه. هذا لم أتعلّمه أنا في أبرشيّتي (حوران) إلّا بصعوبة شاقّة وبعد سنوات. ومع ذلك لم أبلغ تجاوز الجمال البيزنطي لأصل إلى رؤيا الحبيب الإلهي التي تُغني عن كلّ جمال.

صافحنا واحداً واحداً بعد القدّاس وكان فرحه لا يوصف بحضورنا، وأشعرنا أنّنا كنّا تعزيته، وللمفارقة بعضنا صدّق ذلك!

أذهلنا فيما بعد شيء عرفناه فيه. سهره في الليل على كتابة رسائل لأولاده الروحيّين الذين لم يعد يسمح له وضعه الرعائي كمطران أن يلتقي بهم شخصياً كما كان في السابق. وقتها عرفنا أنّ فراشه السيارة وليس غرفة نوم. فأكثر وقت نومه كان يقضيه أثناء تنقله بالسيارة من منطقة إلى أخرى، في أبرشيّته الواسعة (١٠٠٢ رعية)، والممتّدة بين لبنان وسوريا.

إنسان كالمطران بولس بندلي زرع في الكنيسة نَفَساً روحيّاً إنسانيّاً لا تكون الكنيسة كنيسة يسوع المسيح من دونه. اهتمّ أن تكون عنده مؤسسات، ومدرسة عكّار الأبرشيّة التي أسّسها ووسّعها من أنجح مدارس منطقة شمال لبنان. ولكن تركيزه على الإنسان هو الأهمّ. كلّ شيء عنده للإنسان. ما من شيء، ما من مؤسسة، ما من مال، ما من وقف، ...إلا من أجل القريب، وخدمة للقريب، وسبيلاً إلى خلاص هذا القريب.

الحبّ الذي زرعه. اللطف الذي وزّعه. الحنان الذي أعطاه. كلّه صورة عن وجه يسوع المتحنّن. يسوع الراعي الصالح. إله بولس بندلي لايمكن إلا أن يُحَب ويُحنى الرأس إجلالاً وتوقيراً له. نفعنا الله بصلاته المسموعة عند الربّ.